عن مجلة كتاب. جيل ورسالة
ك دجنبر 1975

فتحي هديقش

بطل الريف ...

الامير الخطابي

قبل الشروع في الحديث عن جهاد هذا البطل ، نتابع بصورة سريعة الأحداث العالمية وموقف مراكش منها في ذلك الوقت .

● بعد حدوث الانقلاب الصناعي وظهور الثورة الصناعية ظهرت الحاجة الملحة إلى المواد الخام وتوفير الأسواق لتصريف المنتجات من المواد الصناعيـــة ، ولذلك ظهرت الشركات التجارية الكبيرة التي تعمل تحت حماية حكوماتها ، كما ظهرت الشركات التي استطاعت أن تقنع حكوماتها وتدفع بها إلى اتباع سياسة استعمارية واضحة لتحقيق أطماعها بالحصول على المواد الخام وتصريف مصنوعاتها .

وكانت فرنسا قد احتلّت تونس والجزائر وما زالت تعمل على تحقيق أهدافها في مراكش ، غير أن ذلك لم يكن ليتم بالسهولة التي اتمّت بها احتلالها لتونس والجزائر ، حيث أن انجلترا وألمانيا كانتا قد رضيتا بهذا الاحتلال ، وتمّ ذلك عن طيب خاطر كل منهما وذلك لأسباب تهمّ كل دولة منهما .

● وكانت أهمية مراكش قد أصبحت كبيرة جداً ، وذلك لسيطرة هذه المنطقة على مدخل البحر المتوسط ، وخاصة بعد أن افتتحت قناة السويس سنة ١٨٦٩م ، وبذلك أصبح البحر المتوسط طريقاً هاماً للوصول إلى المشرق الأقصى ، ولذلك بدأت فرنسا مساعيها منذ سنة ١٨٨٠م لإخضاع مراكش لسيطرتها ، هذا في الوقت الذي كانت تسعى فيه الدول الاستعمارية الأخرى لمنعها من تحقيق هذا الهدف . وقد كانت جميـــع الدول الاستعمارية تمتلك امتيازات سياسية واقتصادية تجارية داخل مراكش ، وذلك بحجة رعاياها المقيمين داخل البلاد ، وكثيراً ما كانت هذه الدول تختلق المشاكل

والتلاعب مع سلاطين مراكش منذ البداية ، وقد كان سلطان مراكش يعي جيداً ، ويراقب بعمق كل هذه التطورات السياسية العالمية ، كما أنه أدرك منذ البداية المؤامرات التي تحاك لإخضاع بلاده لحماية أي منهما .

● وفي سنة ١٨٨٠ م عقد مؤتمر دولي في مدينة مدريد بأسبانيا ، وذلك بقصد مناقشة وسائل حماية مراكش من التدخل الفرنسي ، وفي هذا المؤتمر عقدت معاهدة بين مراكش من جهة وبين ثلاث عشرة دولة أوروبيّة من جهة أخرى ، وهي المعاهدة التي أعطت امتيازات لكل الدول الأوروبية على السواء ، وهذا ما زاد في تعقيد الأمور بالنسبة لفرنسا حيث أنها بدأت تسعى عند كل دولة منفردة لكي تعترف لها بمركز أكثر امتيازاً في مراكش ، وبالطبع كان هذا بمقابل سواء على حساب مراكش أو على حساب فرنسا نفسها ، وقد بدأت فرنسا حملتها هذه بإيطاليا ، حيث استطاعت أن تعقد معها اتفاقيـــة سرّية في شهر نوفمبر سنة ١٩٠٢م ، وبموجب هذا الاتفاق السري تغض فرنسا نظرها عن يد إيطاليا في طرابلس (ليبيا) مقابل إطلاق يد فرنسا في مراكش .

وعندما انتهت فرنسا من تفاهمها مع إيطاليا ، اتجهت إلى انجلترا حيث عقدت معها سنة ١٩٠٤م ، وفي شهر ابريل ، الاتفاق الودّي الذي نص على إطلاق يد انجلترا في مصر مقابل إطلاق يد فرنسا في مراكش ، بشرط أن لا تحاول فرنسا إقامة أية تحصينات على الساحل المراكشي المواجه لجبل طارق ، وبعد أقل من ستة أشهر ، وفي شهر أكتوبر من نفس العام صادقت أسبانيا على هذا الإتفاق ، وكان أن حصلت أسبانيا على الجـــزء الشمالي الغربي لمراكش مقابل تصديقها على الاتفاق ! !

● أما موقف ألمانيا ودورها فإنه يبدأ عندما وجدت مراكش نفسها أمام هذه المعاهدات التي عقدتها فرنسا مع بقية الدول الاستعمارية وانها لم تكن لتفعل شيئاً ، خاصة وأن فرنسا ضمنت بهذه المعاهدات بسط نفوذها في مراكش دون أية متاعب تشغلها ، وهذا ما دعى حكومة مراكش إلى الاتجاه نحو أعداء فرنسا وخاصة ألمانيا التي كانت تنظر إلى معاهدات وتحالف فرنسا خاصة مع بريطانيا . كانت ترى في ذلك ، المحاولة الكبيرة لتطويق الامبراطورية الألمانية ، مما دعى إمبراطور ألمانيا إلى أن يقوم بزيارة لمراكش حيث نزل في طنجة في مارس سنة ١٩٠٥م . واستقبل هناك بحفاوة ، حيث قام بإلقاء خطاب بمناسبة زيارته هذه ، أعرب فيه عن تأييده لمؤتمر مدريد سنة ١٨٨٠م الذي نص على بقاء مراكش بمنأى عن التيارات السياسية لجميع الدول تحت سيادة سلطانها ، كما أعلن عن بذل كل جهده في سبيل حماية مصالح ألمانيا في مراكش .

● ثم كان مؤتمر الجزيرة ، حيث كان يتكون من نفس الدول التي وقعت اتفاق مدريد سنة ١٨٨٠م ، وكان يترأس وفد مراكش في هذا المؤتمر « المقرى ومحمد الطريس » ، وكانت التعليمات إليهم بمعارضة أي قرار يمس استقلال مراكش وخاصة في موضوع إلزامها بضباط فرنسيين لتدريب الجيش الوطني .

وقد بدأ المؤتمر أعماله رسمياً في يوم ١٦ يناير ١٩٠٦م برئاسة الدوق « دالمودوفار » ، الذي افتتح المؤتمر بكلمة له ، وضح فيها أهمية المؤتمر ووضع سيادة السلطان في المغرب ، هذا ، وقد كانت أهم نقاط المؤتمر تنحصر في مسألة البنك والبوليس حيث كان الخلاف كبيراً حولها ،

الاميـــر الخطـابي

وقد رأى المؤتمر البداية بالمواضيع الأخرى حتى يتمّ علمها في جو نقيّ وصاف ، وليتح الفرصة للأطراف المتنازعة في هذين الموضوعين لبحثها في فترة ما قبل الوصول إليها، ومناقشتها رسمياً على مائدة المؤتمر ، كذلك ناقش المؤتمر مراقبة وضع تهريب الأسلحة . وقد اصطدم وفديّ فرنسا وألمانيا عدة مرات في معظم الموضوعات التي بحثها المؤتمر ، وأصدر المؤتمر قراراته في أبريل سنة ١٩٠٦م، حيث اتفق أعضاؤه على القيام ببعض الإصلاحات المـالية والجمركية والاقتصادية ، وذلك لحفظ الأمن والرفاهية والمساواة بين جميع الدول في التمتع بالامتيازات الممنوحة لهم داخل مراكش ، وكانت الولايات المتحدة ، التي بدأت المؤتمر ، تنظر إلى مجهودات فرنسا في مراكش بعين السخط « وقد أقرّ السلطان مركز فرنسا الممتاز في مراكش فسمح لها بأن تشرف على شرطة الدار البيضاء ، وطنجة ، فتكون تحت إشراف دولي وأن يكون البنك الأهلي الشريفي قسمة متساوية بين الدول المختلفة » ، كما وضع المؤتمر لائحة للعقوبات لفرضها على المهربين للأسلحة وللقضاء على محاولات التهريب والبت في أمر الأسلحة المصادرة ، وأرسلت بنود هذا الاتفاق إلى السلطان في فاس لأخذ رأيه وموافقته .

غير أن الشعب في مراكش لم يرض بهذه القرارات ، وقام بالإعراب عن استنكاره وسخطه ، حيث ثار الأهالي بزعامة « الريسولي » حيث تعرّضوا لضربات فرنسا التي أرسلت قواتها لإخماد هذه الثورة والسيطرة على البلاد ، واستطاعت أن تحتل بعض المـدن منها : « الدار البيضاء ، والعوجاء ، والشادية » ، كذلك قامت أسبانيا بحشد قوات كبيرة في « مليلة » و « سبتة » مما زاد من ثورة الشعب المغربي ، وأدى إلى خـلع السلطان عبد العزيز وتولية مولاي عبد الحفيظ .

وفي مارس سنة ١٩١١م ثارت بعض القبائل في وجه السلطان عبدالحفيظ هذا، الذي استنجد بفرنسا التي رحبت بذلك، وأرسلت له فرقة عسكرية دخلت فاس ومكناس والرباط ، واحتلتها بعد سحق الثورة تماماً ، كما أنها بعد ذلك أرغمت السلطان على إقالة أحد وزرائه الوطنيين ، ووضعت مكانه شخصاً آخر موالٍ لها .

وكان بقاء القوات الفرنسية داخل هذه المدن إثارة للحكومة الألمانية التي رفضت هذا العمل واستنكرته ووصفته بأنه منافٍ لمؤتمر الجزيرة ، وكذلك يتعارض مع مصالح ألمانيا في المنطقة الجنوبية من مراكش ، ورأت ألمانيا أن تدعم موقفها فأرسلت طراداً حربياً إلى الشواطىء المراكشية، وكان اسم هذا الطراد « بانثر »، وقد قام هذا الطراد بمظاهرة جوفاء في المياه المراكشية في تلك المنطقة ، وأبلغت الدول بأنها أرسلت هذه القطعة الحربيـة إلى أغادير للمحافظة، وحماية رعاياها الألمان من هجمات القبائل الثائرة .

وكانت الحكومة الألمانية ترغب في الحصول على تعويضات من فرنسا غير أنها لم تكن تصرّ على أن يكون التعويض في مراكش نفسها حيث تجد في الخطاب الذي أرسله « كورلين » وزير الخارجية الألماني إلى الامبراطور ويقول له : « إن امتلاكنا لمثل هذه الرهينة « أغادير » يمكّننا من مراقبة الأحداث والتأثير عليها ، وسننتظر لنرى ما إذا كانت فرنسا ستقـدم لنا تعويضات في

المستعمرات ، وحينئذ نترك موانىء مراكش » .

غير أن فرنسا أكّدت للحكومة الألمانية بالمحافظة على رعاياها بالبلاد ، وعادت القطعة البحرية الألمانية منسحبة دون أي اعتراض ، والملاحظ أنه منذ هـذا الوقت ظهر تقارب سريع بين ألمانيا وفرنسا، حيث انتهى هذا التقارب بعقد اتفاق ثنائيّ بينهما في نوفمبر سنة ١٩١١م، وقد جاء في هذا الاتفاق السماح لفرنسا بوضع يدها على مراكش لتأمين إمدادها بالمعونة من أجل القيام بالأعمال الإصلاحية في شتى المجالات مع استمرار حرية التجارة المقررة في جميع المعاهدات السابقة .. وفي نهاية الشهر نفسه تغاضت ألمانيا عن قيام فرنسا بفرض حمايتها على مراكش نظير تنـازل فرنسا عن جزء من الكمرون الخاضع لنفوذها ليكون من ممتلكات الامبراطورية الألمانية ، وهكذا أصبحت فرنسا في موقف حسن بالنسبة لفرض حمايتها على مراكش نهائياً .

وفي ٣٠ مارس سنة ١٩١٢م تمّ توقيع اتفاقية الحماية بين فرنسا والسلطان الذي قبل هذه الحماية فيما عدامنطقة طنجة (أصبحت منطقة دولية) والمنطقة الأسبـانية (تحت الاحتلال الأسباني) ، وفي شهر نوفمبر من هذا العام كان الاتفاق بين أسبانيا وفرنسا حيث تحددت بينهما مناطق نفوذ كل منهما .

وبعد هذه اللمحة السريعة عن الأحداث الـتي سبقت وضع الاحتلال واشتداد وتنظيم المقـاومة الوطنية ، بعد هذا، نستطيع أن نتحدث عن مرحلة جهاد الأمير عبد الكريم الخطابي حيث ستكون الرؤية واضحة لدينا .

• الأمير عبد الكريم الخطابي :

ولد محمد بن عبدالكريم الخطابي في « مليلة » وسط سكانها الذين هاجروا من الأندلس بعد سقوطها ، وهو من أسرة الخطابي، وهي الأسرة ذات الشأن العظيم في الريف، وصاحبة الزعامة في قبيلتها بني « ورياغل » التي تسكن الشمال الشرقي لمنطقة الريف ، وهي مـن أعظم القبائل نفوذاً وأكثرها عدداً وشجاعة .

وقد شبّ الأمير في مدينته هذه في كنف والده ، ودرس مبادىء العلوم على يد والده وواصل تعليمهالأول في مدارس مليلة ثم اتجه إلى فاس ودخل إحدى المدارس الدينية ونال إجازة في العلوم الدينية حيث عاد بعدها إلى مليلة والتحق بإحدى المدارس الأسبانية حيث ظهرت بوادر النبوغ عنده ومواظبته على تحصيل دروسه حتى انتهى من دراسته ونال دبلوم المدارس الثانوية متفوقاً على زملائه ، غير أنه بعد أن انتهى من دراسته ظل بدون أي عمل لفترة من الزمن ، وقرر السفر إلى أسبانيا لينهل من العلم أكثر ، فالتحق بجامعة «شلمنكا» واستطاع أن ينال شهادة الحقوق والآداب ولقب دكتورا فيهـا . وفي فترة العطلة الدراسية بدأ في دراسة تاريخ العرب في الأندلس واتجه إلى المعاينة على الطبيعة حيث ساح في بلدان الأندلس وشاهد الآثار الخالدة لأجداده .

وكان محمد بن عبد الكريم الخطابي قصير القامة ، مستدير الوجه ، حادّ العينين ، له لحية خفيفة ويرتدي العمامة والجلباب المغربي ، وغالباً ما يرتدي الملابس الأوربية ، كما أنه يضع نظارة على عينيه ، وكان ضحوك الوجه يحب المبادرة ويكره التواني، وله شخصية بارزة وإرادة قوية ، كما أنه كان فارساً ماهراً من الفرسان الذين

الأمـــير الخطـابي

لا يرهبون الحوادث ، كذلك كانت له خبرة واسعة في الأحوال العصرية، وعلى دراية كاملة بالأساليب العلميّة والفنية تنمّ عن رجحان العقل ونضوج الفكر .

وبعد أن عاد من أسبانيا حيث أتمّ دراسته عُيّن قاضياً مدنياً لمدينة مليلة ، وظل في منصبه حتى قامت الحركة التحريرية ، وكان من خلال حياته هذه يحتك بالشباب ويجالسهم ويبث فيهم روح القومية ويحبّب إليهم الجندية، مما جعل الكثيرين منهم يدخلون المدارس الحربية ويصبحون ضباطاً فيما بعد ، حيث كانوا اليد المعاونة الكبرى في تدريب القوات الريفية .

وخلال الحرب العالمية الأولى أرسلت قيادة المحور فرقة من قواتها نزلت في أحد موانىء الريف بقصد إثارة الاضطرابات والقلاقل ضد قوات الحلفاء في مستعمراتهم، ومن هنا كانت الفرصة سانحة للأمير حيث انضم إلى هذه الفرقة وبدأ يعمل على مناوشة فرنسا وغيرها بإثارة الشغب واضطراب الأمن ، وقد اختلط الأمير بهؤلاء الضباط واستطاع أن يستفيد من خبراتهم العسكرية ومعلوماتهم الحربية ، وقد أدى هذا إلى تخوف أسبانيا وعدم استراحتها لأعماله وهو من أصحاب النفوذ والكلمة المسموعة بين قومه، فقامت باعتقاله غير أنها ما لبثت أن أفرجت عنه وعيّنته ضابطاً في الوزارة الحربية لديها .

وعندما وقعت بعض القلاقل في منطقة الريف ، وذلك بعد الهدنة سنة ١٩١٨م رأت أسبانيا أن خير من يقوم بتهدئة هذه المنطقة والسيطرة عليها هو الأمـير محمد بن عبد الكريم ، فنقلته وزارة الحربيـة إلى فرقة الريف وذلك للاستفادة منه في تلك المنطقة ، وخاصة أنه صاحب نفوذ وخبرة بهذه الجهة .. واستلم الأمير عمله الجديد وحاول بكل جهده التوفيق بين مصلحة بلاده ومخطط الأسبان ، ولا شك أنه في سبيل ذلك قد لاقى الكثير من المتاعب والخواطر ، وعندما رأى أنه غير قادر على ضبط هذا التوازن ، فقد قدم استقالته مـن الجيش وعاد مرة أخرى قاضياً مدنياً في مليلة ، يعد العدة ليوم الثورة والجهاد .

وأما عن الفترة التي قضاها ضمن القوات الأسبانية ، فقد كان مثال الجندية والدراية والخبرة والنجاح، حيث تحصّل على عدة أوسمة ونياشين مكافأة له على أعماله التي قام بها ، وعندما قدّم استقالته من الجيش الأسباني كان قد وصل إلى رتبة « كابتن » .

إندلاع الثورة :

كان الأمير قد امتلأ تماماً بالحقد والكراهية لأولئك الأسبان الذين يحتلّون بلده ، وكثيراً ما كان يسمع ويرى الناس من حوله وهم يتهامسون عن مصيرهم في هذا البلد ، حتى كان يسير يوماً في أحد شوارع البلدة وإذ به يشاهد أحد الجنود الأسبان وقد أمسك بأحد الريفيين ويضربه بالسوط ضرباً مبرحاً مما أثاره ، فتقدم الأمير إلى الجندي الأسباني يسأله عما فعله هذا الريفي ! فأجابه الجندي بأن دابة هذا الريفي قد صدمته في يده ، ولمـا حاول إقناعه بإطلاق سراح هذا الرجل المسكين رفض

الجندي وواصل عمله !! وعلى الفور ذهب إلى مقر قيادة الجيش الأسباني وقابل القائد حيث أخبره بكل ما رآه، وطلب إدانة هذا الجندي « تهدئة للخواطر الهائجة » ، غير أن القائد أجابه بأن الأسباني مهما كان فهو سيد هذه البلاد . ولكن الأمير قال له : « وأنت أيضاً لا تدري بأن هذا الكرباج (السوط) سيكلف أسبانيا ثمناً باهظاً ويحملها عبئاً ثقيلاً » .

وخرج الزعيم الثائر واتجه من فوره إلى مقر قبيلته في إجدى الضواحي ، وهناك التقى ببعض أصدقائه المخلصين ، وقصّ عليهم ما حدث وطالب بالانتقام والقيام في وجه أسبانيا ، وسألهم إذا كانوا يشاركونه الرأي في ثورته أم لا ؟. وكان من الطبيعي أن يوافقوه جميعاً ، وأقسموا اليمين على حفظ هذا السر والدفاع عن الاستقلال حتى النهـــاية . وهكذا انطلق كل منهم إلى مكان ما وأحضر بندقية وذخيرتها وعاد إلى المكان حيث التقوا مرة أخرى .

وكان أول عمل قام به هؤلاء الثوار (القليلي العدد حيث كانوا لا يتجاوزون العشرة أفراد) هو أنهم بدأوا في مناوشة العدو بعدما اختفوا وراء ربوة عالية ، قريبة من أماكن الأعداء، « وانطلقت أول رصاصة يوم ١٤ ذي القعدة سنة ١٣٣٩هـ الموافق ٢٠ يوليو سنة ١٩٢٠م » ، وقد هاجم هؤلاء الثوار مخفراً للأسبان واستولوا على اسلحة الجنـــود التي أعطوها لباقي رفاقهم الذين طلبوا الانضمام إلى صفوفهم .. وهكذا استمرت أعمال الهجوم المسلّح البسيط على مراكز تجمع العدو ، وفي كل عملية يستولون على الأسلحة والعتاد ثم يقدمونها إلى باقي رفاقهم واخوانهم ، خاصة بعد انتشار خبر هذه الثورة وذاع صيتها في كل المنطقة وكثر العدد .. واشتعلت الثورة تماماً .. وأما الموقف في الجانب الآخر أي عند أسبانيا ، فإنها رأت فيهم مجرد لصوص من قطّاع الطرق ولم تهتم بهم كثيراً .. بل اكتفت بمجرد المطاردة المحدودة ، ولكن عندما بلغ عدد أنصار الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي خمسمائة ثائر ، اشتدّ بذلك ساعده في الوقت الذي هاجت فيه خواطر الشعب وتفتحت عيناه ، فأحب المقاومة وساندها ، وكان ذلك بمثابة ناقوس الخطر الذي يدقّ ليعلن لأسبانيا خطورة الموقف ، وبالفعل شعرت أسبانيا أخيراً وأرسلت الجيوش وأعدّت الحملات للقضاء على هذه الحركة الثورية .

ولما قويت شوكة المجاهدين وكثر الأتباع ، رأى الأمير الخطابي أنه من الحكمة جعل هذه الحركة القومية شاملة وعامة ، وذلك لنجاح القضية ، فقام بدعوة القبائل وأهالي المنطقة ليجتمع بهم في معسكره ويشرح لهم هذه القضية القومية ، وفعلاً حضر الكثير من الناس، فقام وقال فيهم كلماته التي تحثّ على التضامن لطرد المستعمر ، وشرح لهم أبعاد قضيتهم والأعمال الوحشية التي تقوم بها القوات الأسبانية ضد الأهالي الآمنين ، كما أنه طلب إليهم إبداء آرائهم وأفكارهم ليصلوا إلى نتائـــج أعمّ وأصلح .. وبذلك استطاع أن يحصل منهم على التأييد الكامل لمواصلة مسيرة الجهاد والدفاع عن الوطن ورأوا أن خير وسيلة وأضمن طريق هو تأسيس مجلس عام، يخضع الجميع لقراراته وعليه الخطط لسير المسيرة ، وكذلك تأليف حكومة وطنية لإدارة شؤون البلاد ووضع اللوائح والقوانين .

— يتبع الحلقة ٢ —

بطل الريف ... الامير

فتحي خديقش

الخطابي

الحلقة "٢"

النضال ضد الاسبان :

يرجع المقاومة ضد الأسبان الى فترة بعيدة منذ سنة ١٨٥٩ م حين أثارت الامتيازات الأجنبية شعوراً بالسخط في البلاد وذلك أيام حكم السلطان مولاي محمد حيث استقر الأسبان في جزيرة الزعفران منذ سنة ١٨٨٤ م ، غير أنهم حاولوا توسيع منطقة إحتلالهم مما أثار المواطنين ، وهجموا على بعض المراكز الأسبانية غير أن الأسبان نجحوا في التقدم نحو « تطوان » لولا ظهور بريطانيا وتدخلها لوقف هذا الزحف .

وبعد تنظيم صفوف المقاومة وكثرة الأتباع تولى الأمير الخطابي قيادة المقاومة ضد الأسبان ، وكان أول عمل قام به هو تخليص مركز « دارابارا » من بين أيدي الأسبان وقد نجح في هذا العمل بهجوم ضم « ثلاثمائة مقاتل كانوا معه » وهكذا تمكن من طرد العدو بعد معركة حامية خسر فيها الأسبان أربعمائة جندي وستة من الضباط وغنم فيها الثوار كثير من العتاد الحربي ، وكان لهذا الإنتصار صداه البعيد في توحيد صفوف الريفيين وتجمعهم حول الأمير المنتصر ، وأيضاً كان هذا الإنتصار بمثابة الرصاصة التي أسكتت كل الدعايا التي كان يروجها بعض الخونة ضده شخصياً وضد عائلته .

ثم كانت معركة « أنوال » تلك المعركة الكبيرة والتي عرفت بضراوتها وقوتهـا ، وكان إذذاك الجنرال «سيلفستر» هو القائد للقوات الأسبانية ، وقد استمرت هذه المعركة ستة أيام

←

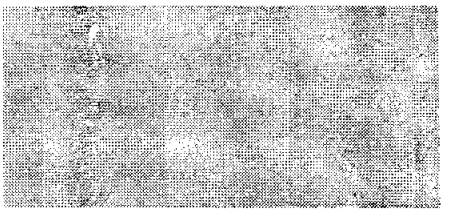

بطل الريف.. الأمير الخطابي

كانت القوات الأسبانية خلالها تهاجم بقوة وتتقدم بأسلحتها ومعداتها التي لم يكن ليملكها الثوار الوطنيين ليقابلوهم بالمثل، فقد كانت القوات الأسبانية تملك الأسلحة الحديثة والمعدات الثقيلة، كما كان رجالهم من الجيش المنظم والمدرب على هذه الأسلحة، بينما كانت القوات الريفية تتكون من رجال القبائل الريفية حيث كانوا يعتمدون في تسليح أنفسهم بالمرتبة الأولى على ما تقع عليه أيديهم من غنائم، كما كانوا يستعملون بعض القطع من الأسلحة القديمة.

وفي سؤال كان قد وجه إلى الأمير بعد أسره ونفيه عن كيفية حصوله على الأسلحة والأموال، أجاب الأمير: «أنه كانت هناك ضريبة مفروضة على السكان وكذلك الفدية التي كان يدفعها الأسبان لاسترجاع أسراهم، وأما الأسلحة فقد كان الحصول عليها إما بشرائها من الجند الاسبان أنفسهم أو بالاستيلاء عليها من الجند الأسبان أثناء المعارك، هذا بالإضافة إلى أن السكان كانوا يمتلكون السلاح في منطقة الريف ولكن بقياسه بسلاح الأسبان ليس بسلاح».

كل هذا التباين والإختلاف في نوعية الأسلحة وكميتها لم يفت من عزيمة الأمير وقواته فقاوموا ودافعوا بكل طاقاتهم، وكان النصر حليفهم حتى بدأ العدو ينسحب إلى الوراء تاركاً قتلاه وأسراه، وتاركاً مركزه في «أنوال». وكانت القوات الريفية تتعقب العدو حتى انسحب من جميع المراكز التي من حول «أنوال»... وهكذا بدأ تقهقر الأسبان بشكل أقرب إلى الفرار والهروب منه إلى الإنسحاب حيث لم تجد قوات الأمير أية صعوبات في ملاحقتهم والقضاء على مؤخرة قواتهم.

وهرب الاسبان تاركين وراءهم أكثر من مائة مركز حربي في يد القوات الريفية، كما تركوا وراءهم طريقاً طويلة مليئة بجثث قتلاهم، وقد غنم المجاهدون معظم آلياتهم وأسلحتهم ومنها «مائتي مدفع، وعشرين ألف بندقية، وكميات وفيرة من المعدات والذخيرة، وزهاء المليونين خرطوشة وعدداً كبيراً من السيارات والحافلات وغيرها من حاجيات الجيش، وبلغ الأسرى سبعمائة شخص».

لا شك أنها كانت فرصة عظيمة للأمير لتجهيز قواته بهذا العتاد وهذه الأسلحة، كما أنه قام بتنظيم صفوف قواته التي بدأت معنوياتها ترتفع، وقوي إيمانهم وكثر أتباعه وأنصاره.

وخلال سنتي ١٩٢٢ – ١٩٢٣ م كان الأسبان قد أعدوا قواتهم وقاموا بتنظيمها وتجهيزها من جديد بعد الهزيمة الشنيعة في «أنوال»، وأرسلوا قواتهم العديدة هذه إلى منطقة الريف بقيادة «الجنرال برانجي» والتي قامت بمهاجمة قوات الأمير، ودارت بين الطرفين معارك شديدة وقوية قام خلالها الأمير بشن الهجوم الفاصل حيث استطاع أن يدحر الأسبان ويهزمهم شر هزيمة فانسحبوا إلى مليلة، بعد أن تكبدوا الخسائر الفادحة في العتاد والأرواح، ولم يكن وقع هذه الكوارث هيناً وسهلاً على الحكومة الأسبانية التي ما إن وصلها نبأ هذه الهزائم حتى عقدت مجلساً حربياً تقرر فيه وقف إرسال القوات المسلحة إلى منطقة الريف والبحث عن الاتفاق السلمي بعد أن توالت الهزائم عليهم، وستتوالى هذه الهزائم لمدة خمس سنوات منذ شهر يوليو ١٩٢١ م حيث هزموا في أول معاركهم.

ولقد حملت الحرب الريفية اسبانيا من النفقات ما لا تستطيع أن تحمله مثل هذه الدولة التي نضب معين ثروتها، وفي سنة ١٩٢٣ م نشر وزير المالية أرقام هذه المغامرة حيث ظهر أن سنين الحرب من ١٩٢١ – ١٩٢٣م قد زادتا اسبانيا فقراً على فقر حيث كلفت أسبانيا ما يقرب من ٤٣ مليون جنيه استرليني، بل لقد وصفت مراكش بأنها مقبرة الشباب الأسباني والهوة التي لا قرار لها للثروة الأسبانية.

نعود للمجلس الحربي حيث سافر رئيس الوزراء وزملائه إلى «مالقه» وقاموا باستدعاء «الجنرال برانجي» القائد العام لمنطقة الريف والمقيم العام بالمنطقة الأسبانية من المغرب وتم ابلاغه عن قرار الحكومة، غير أن الجنرال «برانجي» لم يرض بذلك وعارض هذا القرار بشدة، وعاد ليستأنف قتاله ضد القوات الريفية من جديد حيث بدأ هجومه الذي حشد فيه قواته الكبيرة البالغة خمسين ألفاً

من المقاتلين بمنطقة « الحسيمة » بكامل عتادهم ، وقوات أخرى كبيرة بناحية « مليلة » لتتمركز بجبل بني دوس وذلك لمهاجمة الأمير بأجدير (أغادير)

وقام الأمير بهجومه حيث اشتدت وطأة المعركة حول منطقة الحسيمة ، وقد شاركت المدفعية الريفية لأول مرة في هذه المعركة حيث استمرت المعركة لمدة أسبوع بكامل أيامه ، وقد قامت القوات الريفية خلاله بفتك شامل لقوات العدو وكان عدد القتلى في جيش الجنرال الأسباني « خمسة آلاف جندي وتم أسر ثلاثة آلاف وجرح الجنرال نفسه بجرحين خطيرين في صدره » وهكذا كان النصر المظفر حليف القوات المجاهدة بعدما كبدوا العدو الخسائر الجسيمة .

وقد سافر الجنرال الأسباني إلى مدريد حيث أعلن إلى أركان حربه العدول عن خطة الهجوم على أغادير والإكتفاء بجمع القوى حول مليلة لتوسيع منطقته حول ميناها .

وأما القوات الريفية بزعامة الأمير فقد واصلت هجومها على القوات الأسبانية واستطاعت أن تدمر عدة مراكز للأسبان ، كذلك قاموا بعمليات حربية بحرية ضد هذه القوات المعتدية وقداشتركوا بسفينة واحدة هي كل ما لديهم .

وأما مجرى الحوادث في أسبانيا فقد تغير حيث لم يتقبل الشعب هذه الهزائم والخسائر المتكررة ، فقام الناس بالتعبير عن استنكارهم وسخطهم لهذه الهزائم وهذا العار ، في الوقت الذي كان فيه نجم الثوار الريفيين بدأ يسطع في سماء العالم أجمع مما أضطر الحكومة الأسبانية إلى أن تبدأ في البحث عن الحل السلمي مرة أخرى وخاصة بعد هذه المعارك وتلك الخسائر الفادحة فقامت الحكومة بإنتداب أحد الأثرياء الأسبان يدعى « أرشيفاتا » لمقابلة الأمير الخطابي والتفاهم معه على عقد الهدنة

ثم الصلح بعد ذلك ، ووصل بالفعل الى أغادير واجتمع مع الأمير عدة مرات انتهت بعقد الاتفاق على هدنة مؤقتة وإطلاق سراح الأسبان مقابل دفع فدية معينة وإطلاق سراح جميع الأسرى من قوات الأمير .

وعندما جرت المحاولات لعقد الصلح لم يصل الطرفان إلى نتيجة حيث طالب الريفيون بالاستقلال التام للمغرب الشمالي وإنفصاله عن أسبانيا.. وكانت اسبانيا ترى منحهم مجرد إستقلال داخلي .

وفي سنة ١٩٢٣ م عاد الريفيون بهجوم كبير وخطير وذلك في منطقة جبل « درسة ـ شفشاون » واستطاعت أن تحتل مراكز القوات الأسبانية الأمامية بعد اشتباك عنيف حيث أصبحت القوات الأسبانية في موقف حرج ومأزق مريع مما أدى ببعض المسئولين الأسبان للتصريح « بأن القضية أصبحت خطيرة جداً » .

واجتمع مجلس الوزراء الأسباني إثر هذه الحوادث المفجعة وقرر المجلس إنتداب وفد للتفاوض مع الأمير الخطابي في عقد الصلح ، وفعلاً وصل الوفد إلى تطوان وانتدب الأمير اثنين من رجاله ليكونا الطرف الثاني في المفاوضات ، وكان هذا المؤتمر الهام الذي تعددت جلساته ولكن دون جدوى حيث أنهما لم يتوصلا إلى حل يرضي الطرفين وذلك لأن الوفد الريفي كان متمسكاً بما جاء في الميثاق الوطني بينما كان الأسبانيون لا يعطون إلاّ بعض التوصيات البسيطة ، وهكذا كان الفشل لمؤتمر تطوان وعادت الحرب مرة أخرى كما كانت قبلاً وكانت المواقع الأسبانية يسقط الواحد منها تلو الآخر في أيدي القوات الريفية

وفي عام ١٩٢٤ م انضمت القبائل ـ المقيمة في المنطقة بين نهر تطوان والأبخرة ووادي اللو وطريق تطوان ـ شفشاون ـ انضمت إلى المجاهدين وقاموا بهجوم جماعي وخاطف على القوات الأسبانية من كل جهة ، وهكذ وقفت قبائل الجبل الى جانب قبائل الريف مما زاد في عددهم وقوتهم ، ويدل ذلك على وضوح الحركة القومية واتساعها في البلاد ، وكان الإنتصار لهذه القوات المجاهدة في كل الجبهات القتالية ، وظهرت قوات أخرى سندت الطريق بين طنجة وتطوان مما أدى الى تفاقم الخطر النضالي على القوات الاسبانية التي على الفور جاء الجنرال الدكتاتور « بريمو دي ريفيرا » الى تطوان وعقد مؤتمراً عسكرياً ضم اثني عشر قائداً اسبانياً وتقرر إعلان الأحكام العرفية في كل أنحاء المغرب الشمالي وجلب جميع القوات الموجودة في اسبانيا وتولى « الجنرال ريفيرا » منصب المقيم العام بالإضافة إلى رئاسته للحكومة في مدريد واكتفى بحماية الموانيء والدخول في مفاوضات مع الأمير والإبتعاد عن مهاجمة النواحي الداخلية .

←

بطل الريف ... الامـير الخطـابي

ومرة أخـرى أنتدب الثري لاسباني « أرشيفاتا » للدخـول في مفاوضات مع الأمير وفعلاً عين الأمير صهره محمد بن محمدي لهذه المهمة ، وخلال المفاوضات قـام المندوب الاسباني بعرض الصلح على مندوب الأمير على أساس تخليها عن المواقع التي جلت عنها وبالطبع لم يقبل مندوب الأمير ذلك وطالب الحكومة الاسبانية بالاستجابة لمطالب الأميـر وهي :

١ ـ تدفع اسبانيا ٢٠ مليوناً من « البسيطات » كتعويض .

٢ ـ تسلم اسبانيا لحكومة الريف ١٥ طائرة ومائة بندقية ومائة وعشرين بطارية مدافع جبلية .

٣ ـ جلاء الأسبان عن مراكش إلى حدود مليلة وسبتة .

٤ ـ إذا قبلت اسبانيا هـذه الشروط عند ذلك يشرع في عقد الصلح وتبادل الأسرى .

ولم تقبل اسبانيا بهذه الشروط وأدى بهم هذا الرفض الى إنسحاب قواتهم من مائتي مركز من مراكزهم تنفيذاً لقرار مجلسهم الحربي .

وعندما وصل الجيش الأسباني للخط الذي قرر الوقوف عنده حتى ثارت القبائل القاطنة وراء هذا الخط مما أثار القوات الأسبانية وألقى الرعب في نفوسهم حيث أصيبت هذه القوات بنكبات مستمرة . ولم تأت نهاية سنة ١٩٢٤ م إلا وقد أصبح مركز الأسبان يدعو إلى اليأس حيث بدأ الأمير يزحف تدريجياً نحو حدود المنطقة الفرنسية .

ويقول « صلاح العقـاد » عن هزيمة الأسبان « وعندما تعددت هزائم الاسبان وأصابتهم النكبات والكوارث من جراء المقاومة وجندها فقد لجأ الاسبان إلى القول بأن أسباب هذه الهزائم هو (طبيعة البلاد الصعبة والفساد الذي كان منتشراً في صفوف جيشهم وإدارته) ، غير أنهم تجاهلوا عاملاً ثالثاً ربما كان أهم وهو أن زعيم المقاومة الجديد كان يختلف عن سابقيه في أنه اتجه إلى تأسيس إدارة منظمة والاستفادة من أحدث وسائل الحرب في مقاتلة العـدو » .

التحالف الاسباني الفرنسي :

من المسلّم به أن فرنسا كانت تنظر إلى نجاح ثورة الخطابي بكل حذر وقلق وأنها لم تكن ترغب في أن تقوم دولة متحررة في هذه المنطقة وخاصة لأن الحدود الفرنسية في الجزائر وحدود مراكش واحدة .

وكان الأمير الخطابي يعمل بكل حرص بحيث لا يعطي الفرصة لتدخل فرنسا في هذه الحرب القائمة بينه وبين اسبانيا لأن ذلك يشكل بالنسبة له ولقواته وأسلحته المحدودة تحالفاً خطيراً للقضاء على هذه الحركة التحريرية ، فكان يعمل على كسب الوقت بحيث يتم جلاء القوات الاسبانية عن المنطقة الشمالية في الوقت الذي يعمل فيه على تمديد أمد المجاملة لفرنسا .

غير أن فرنسا التي نظرت إلى ثورة الخطابي بأنها بادرة خطيرة وخطراً محققاً على سلامة الشمال الأفريقي ، رأت أنه من الأفضل القضاء على مثل هذه الثورة وأنه من مصلحتها إلحاق الهزيمة بقوات الأمير والقضاء عليه ، فكانت منذ البداية تراقب من بعيد ، فلعل اسبانيا تستطيع القضاء على الأمير لوحدها ، وعند ذلك تكون فرنسا قد تجنبت خوض معركة مجهولة المصير ، غير أنها غيرت رأيها بعدما رأت الهزائم المتكررة المنصبة على القوات الاسبانية وذيوع صيت الأميـر ، فوجدت الفرصة سانحة لتلعب دورها أمـام الأمير ، فقامت قواتها بمهاجمة قبائل « ورغة » التي هي بمثابة الحصون الأمامية للمناطق الريفية ، وأدعت فرنسا بأن قيامها بهذا العمل إنما هو

حماية القبائل التي تحت نفوذها من مهاجلة الريفيين ، وعندما شعر الأمير بأن فرنسا بدأت تحاول التدخل لتنضم إلى اسبانيا نجده وقد عمل كل احتياطاته الحربية اللازمة لرد مثل هذا العدوان ، فقام بتعزيز قواته على الحدود الجنوبية المتاخمة للفرنسيين ، كما أنشأ خطوطاً للبرق والهاتف بين هذه الحدود ومقره الكائن في أغادير وذلك إنتظاراً لوقوع أي إشتباك .

وفي ١٣ ابريل ١٩٢٥ م علم الفرنسيون بالخلاف القائم بين رجال الطرق والأمير الخطابي في منطقة الريف ، ولذلك فقد انتهزوا الفرصة وعملوا كل جهدهم بمد أعداء الأمير بالمال والأسلحة وذلك إسهاماً في إثارة الإضطرابات داخل المنطقة ، ولم يرض الأمير لهذا العمل من رجال الطرق فقرر القيام بشن هجوم تأديبي عليهم حيث قام بمهاجمة إحدى زواياهم القريبة من حدود منطقة نفوذ فرنسا في الجزائر .... ومن هنا كانت الفرصة لتدخل فرنسا بحجة الدفاع عن أتباعها .. واندلعت الحرب بين الطرفين ...

كانت فرنسا قد اتخذت الأجرآت التي تكفل للحكومتين الإستعماريتين القضاء على الأمير وقواته ، ومن هذه الإجراءات :

- تنسيق العمل الحربي بينهما (فرنسا واسبانيا) .
- السماح لجيوش الدولتين بتتبع الثوار في منطقة نفوذ كل منهما .
- القضاء على تجارة الأسلحة بين دولة الريف (الثوار) وأوربا .
- تعهد كل دولة للأخرى بعدم لقيام بعقد صلح أو اتفاق مع الثوار دون اتفاق الطرف الآخر .

وكان أول مايو ١٩٢٥ م حيث كانت نار الحرب على أشدها بين لطرفين ، وكانت القوات الفرنسية قد هزمت في أغلب معاركها مما حدا بالقبائل المراكشية إلى أن تنضم الى حركة التحرير التي أصبحت اليوم تواجه قوتين كبيرتين ، ومن أجل التحرير والتحرر انضمت هذه القبائل تحت لواء الأمير من تلقاء نفسها .

ويقول روم لاندو « ... ولقد أدرك ليوتي أن الحوادث الجارية في الريف ليست ثورة قبلية بل كانت بدء ظهور دولة مغربية جديدة ، ولم يكن لديه ريب في أن عبد الكريم إذا نجح فسيعلن نفسه سلطاناً »

هكذا كانت فكرة الماريشال الفرنسي ليوتي عن ثورة الخطابي وجهاده ومدى حرصه ، غير أن الماريشال ليوتي لم يبق في مكانه بل تم نقله وعين مكانه « مسيو سيتج » وعين الجنرال نولان قائداً أعلى للعمليات وكان الماريشال بيتان هو الواقف على سير هذه العمليات .

وبعد أن قام الماريشال بيتان بتنظيم شؤونه العسكرية في المنطقة الفرنسية توجه إلى سبته وتطوان لتنسيق العمليات مع الجنرال الاسباني بريمو دي ريفيرا

كانت دهشة الأسبان والفرنسيين كبيرة لعدم خضوع الأمير واستمراره في المقاومة والدفاع وترتيب الخطط العسكرية حيث أوضح لهما بأن هذه القوات الريفية إنما هي أعظم القوات التي واجهتهم في شمال أفريقيا مما أدى بهم إلى وقوفهم عاجزين عن القيام بأي هجوم أو مجرد التحرك من مواقعهم بل ظلوا لفترة طويلة يقومون بمهمة الدفاع عن مراكزهم ، ولا شك أنهم لاقوا الكثير من الخسائر والكوارث في قواتهم وعتادهم « بالرغم من أنهم لم يعترفوا رسمياً إلا ببضعة آلاف من الجرحى والقتلى ، وإنما كشف أمر هذه الخسائر فيما بعد عندما سقطت دولة الريف وأخذ الأسبان يجردون القبائل من السلاح ، فوجدوا لديها كميات هائلة من الأسلحة الفرنسية » .

هذه الإنتصارات والمفاجآت من جانب الأمير وقواته أدت إلى إعجاب الصحف الفرنسية والأجنبية بهذه الأعمال وهذه البطولات كما قامت في اسبانيا وفرنسا حركات شعبية تعلن الأستياء من الأعمال العدوانية لحكومتيهما والتي أدت إلى تخريب البيوت وقتل الأبرياء من الأبناء وإنزال الشقاء بالنساء وتيتم أطفالهن كما كان « عبد الكريم موضع الإعجاب في الولايات المتحدة وبريطانيا بل وفي معظم بلاد العالم ، وكان العالم ينظر إليه كما ينظر إلى أبطال القصص ويرقب حملته بفيض من العطف ، وليس معنى ذلك أنه تلقى أي عون من الحكومات الأجنبية ، وكل ما تلقاه عون أدبي ومالي من بعض الأفراد الأجانب ، واستطاع بهذا المال أن يحصل على الأسلحة المحظورة » .

يتبع الحلقة — ٣ —

فتحي مديقش